حياة شارع - حلقة (4)

يذكر السفير الفرنسي في العراق بييردي فوصيل في كتابه (الحياة في العراق منذ قرن) والذي ترجمه الدكتور أكرم فاضل، أن من بين الحوادث المهمة في أيام حكم لويس فيليب ذلك الحادث الذي يبدو انه سبب دويّا هائلا وعظيما في هذا القطر الإسلامي، واعني به استسلام عبد القادر الجزائري الذي كانت تربطه روابط دينية بالعراق عن طريق أسرته، كما كانت له شهرة واسعة في هذه البلاد استنادا إلى ما ينقله إلى علمنا البارون دي فيمار ضمن رسالة كتبها في شباط عام ١٨٤٨، ويبيّن السفير الفرنسي أن دي فيمار كتب له قائلا "كان للخبر وقع هائل في بغداد حيث كان يسود الاعتقاد بين سكانها بدوام المقاومة التي يشبهها عرب وأتراك هذا القطر دائما خلال أحاديثهم معي بالحرب الفعالة التي يخوضها (شامل) ضد القوات الروسية في القفقاس، وكان للاهتمام المتعلق بهؤلاء الأشخاص والذي هو نابع قبل كل شيء من المشاعر الدينية للمسلمين وهناك بواعث أخرى في الوقت نفسه، فأن عبد القادر من جانبه لم يكن قد ترك في العراق أقرباء ولكن على الأقل قد خلف بعض الذكريات في بغداد.

الكفاح الشارع الذي سكنه المجاهد عبد القادر الجزائري

■ بغداد: يوسف المحمداوي
تصوير: ادهم يوسف

الشارع الذي وقع فيه انفجار ٢٠٠٧

■ سوق الصدرية يشكو إهمال جارته أمانة العاصمة

■ رؤوس وأرجل الدجاج طعام العوائل المتعففة في بلد النفط

سكنها المجاهد عبد القادر الجزائري

وان العجائز اللاتي يقمن في محلة جامع ومرقد الشيخ عبد القادر الكيلاني ذائع الصيت يدّعين بأنهن يتذكرن عبد القادر الشاب الذي جاء في عام ١٨٢٨ زائرا بغداد، وكان له في هذا الظهور رسم مستقبله، وان تعصّب سكان المحلة التي يوجد في حماها قبر الشيخ ودار القنصلية الفرنسية معا لا يستطيع أن يسلم بأن التنبؤات التي نبئ بها عبد القادر في عتبات بغداد المقدسة وهي استمراره في الجهاد والنصر قد كذبها الواقع على هذا المنوال بعد استسلامه.

انتهى الكلام الوارد في الكتاب الفرنسي صفحة (١٣١)، وهذا يعني أن شارع الكفاح فضلا عن احتضانه مرقد الشيخ عبد القادر الكيلاني الذي تحدثنا عنه في الحلقة السابقة، فهو احتضن الشيخ عبد القادر الجزائري أثناء زيارته بغداد، وكانت فيه أيضا القنصلية الفرنسية.

تركنا عكد الأكراد وتوجهنا صوب محلة الصدرية هذه المدينة العريقة بقدمها وبأصالة ساكنيها الذين لم يغادروها على الرغم من فقدانها أبسط الخدمات الإنسانية، والمصيبة إن نوافذ بناية أمانة بغداد تطلّ عليها وعلى لصيقتها محلة الدهانة!.

أسباب التسمية

تتكون الصدرية من محلتين هما سراج الدين والصدرية وهما متعانقتان تماما، وسراج الدين سميت نسبة إلى مرقد وجامع الشيخ سراج الدين.

وهو شيخ اشتهر بالورع وكذلك بالتفسير ويعد من المفسرين الصوفيين وهو مولود عام ١٣٩١ م وتوفي في بغداد عام ١٤٨٠م وكتب على قبره لوحة تقول الشيخ سراج الدين محمد عبد الله بن المبارك بن محمد بن حزام الواسطي الرفاعي المخزومي البغدادي المفسر الصوفي المحدث، الذي ولد بواسط في العراق ورحل الى الشام ومصر وعاد الى بغداد وتوفي فيها، وقد جدد القبر والجامع من قبل الحاج محمود جبوري سلمان وزوجته الحاجة سمية عباس عبد الرحمن عام ٢٠٠١ م.

أما بالنسبة للصدرية فتسميتها تعود نسبة إلى الشيخ صدر الدين إبراهيم الحموئي الشافعي الزاهد والذي كان مدرسا في المدرسة التبشيرية سنة ٥٧٧ هـ وتوفي في بغداد ٧٢٢ هـ، وقبره وجامعه كان هناك في المحلة التي سميت باسمه وكان واسعا ويقع قرب ساحة كانت سوقا لبيع الحبوب، لكن الذي حصل بعد التغيير تجاوز بعض المواطنين على مساحة جامع وقبر الشيخ صدر الدين، وأصبح جزءا منها محالا جديدة بل بعضها أصبح مكبا للقاذورات، ثم قامت أمانة بغداد بإزالة القاذورات حيث رفعتها بواسطة (٦٥) شاحنة كما يقول احد المواطنين، لكن الأمانة وبدلا من الاهتمام بهذا القبر والجامع الذي يخص احد الشيوخ العارفين قامت باستئجاره لأحد المواطنين الذي جعل من المكان خانا لبيع الأغنام، حين حاولنا تصوير الجامع لم نجد غير الباب وهو الجزء المتبقي منه، ولا ندري لماذا هذا الإهمال لمن تسمى الصدرية باسمه.

التسمية تعود إلى مستشفى

القصاب عبد الرزاق إسماعيل والذي ينادونه بـ(ابو احمد) قال إن اسم الصدرية ليس نسبة إلى قبر وجامع الشيخ صدر الدين وإنما نسبة إلى مستشفى للأمراض الصدرية كان في المنطقة، ولكنه تحول إلى بيوت واندثر، كما يقول أبو احمد، ونعتقد أن الرواية الأولى هي الأصلح لأن الشيخ صدر الدين أقدم من المستشفى الذي يعود تأريخه إلى أربعينيات القرن الماضي.

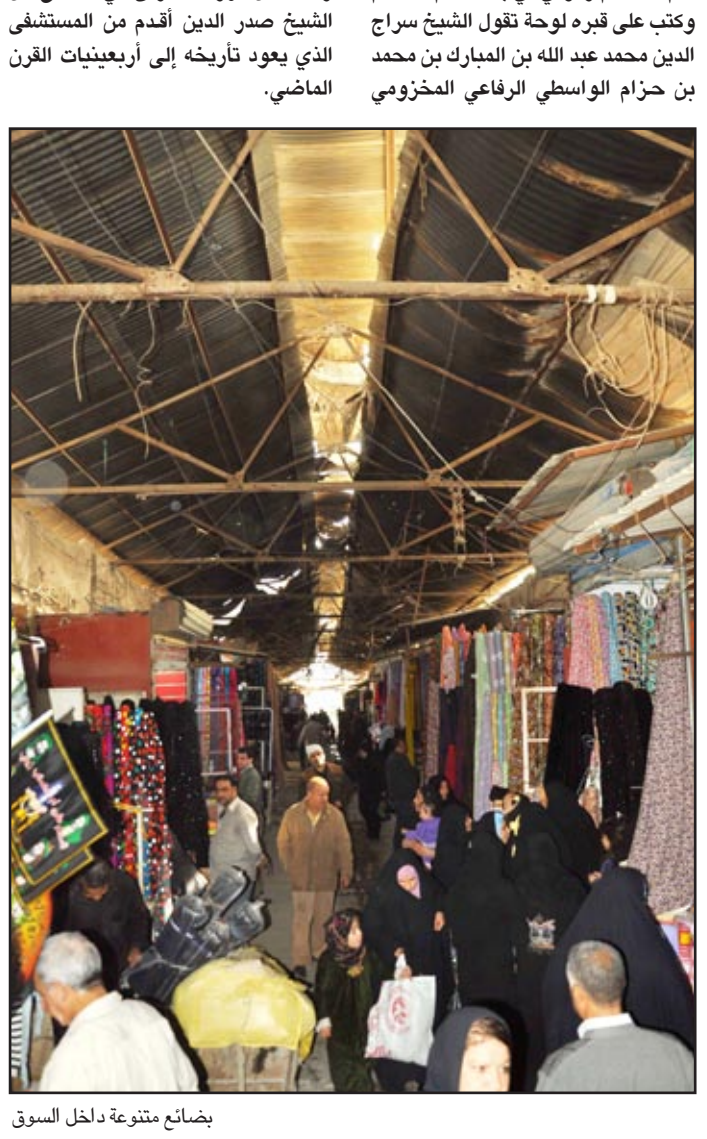

بضائع متنوعة داخل السوق

أسواق داخل سوق

وأنت تدخل سوق الصدرية تجد المحال تتسابق بتقديم بضاعتها خاصة وان السوق لا يقل شهرة وبضاعة عن سوق الشورجة، فهو سوق اللحوم بأنواعها والأسماك كذلك والألبان، والطرشي، وكذلك هو سوق الحبوب، والأقمشة وكل شيء فيها يشهي النفس ويذهل العين، وان خلا شارع الكفاح من النساء، فان السوق ازدحم بهن وتباهى بالحسن والخلق الذي يحملانه.

وحين حاول الزميل ادهم تصوير إحدى النساء الجميلات وهي تتبضع من البزاز محمد علي رفضت بأدب ترافقه ابتسامة حياء، كما تمنيت لحظتها أن أعود إلى أيام الصبا، واستعرض مشاكساتي الشبابية هناك أمام هذا السيل الجارف من الفتنة الإلهية لم أجد غير بداية البنفسج البعيد لشاعرنا ثامر سعيد أتأوّه بها حسراتٍ على صباي حين يقول:

الحزن يبدأ زفرة
ويفيض مثل غمامة بين الجفون
والحب يبدأ:
حيث تشتبك العيون مع العيون
والروح تبدأ من بنفسجها البعيد
من تخوم الهمّ من شفة الفراق
والبحر يبدأ حين تصهل في دمي
خيل من الموج العتاق

اليهود رحلوا بسبب المضايقات

يقول البزاز محمد علي من مواليد الصدرية عام ١٩٤٥ إن السوق تأسس في القرن الثامن عشر الميلادي، وكان في السوق العديد من محال اليهود لكنهم تركوها بسبب المضايقات التي تعرضوا لها بعد حرب ١٩٤٨، ويضيف محمد علي أن ما تعرضوا له من قبل بعض المواطنين لا توصف بشاعته، فقد أخذت منهم الإتاوات من غير وجه حق، ويتابع علي وهو أقدم بزاز في السوق "إن من يقول أن حكومة نوري السعيد هي من قامت بترحيلهم فهو واهم، وان سبب ترحيلهم كون حياتهم أصبحت مستحيلة بعدما تعرضوا له من تهديدات وتنكيل".

أما القصاب (أبو احمد) يقول وهو يحتسي قدحا من الشاي، إن الصدرية لم يتبق منها غير بعض العوائل لأن اغلب بيوتاتها تحولت إلى محال، فضلا عن غياب ابسط الخدمات فيها ولا وجود للمدارس فيها بعد أن اختفت المدرسة الوحيدة والتي بنيت من قبل بيت طبره ولكنها تحولت إلى محال تجارية.

الصدرية وأنت تتجول فيها فأنك تلاحظ أنها خلت من السيارات تماما والملاذ الوحيد لمن يمتلك سيارة هو الموقع القديم لدار سينما الفردوس الصيفي الذي أصبح مرآبا للسيارات، فالأزقة ضيقة جدا وأحيانا لا يحتمل الواحد منها مرور أربعة أشخاص سوية.

مركز القصابين في بغداد

سيارات مفخخة

ومع ذلك لم تسلم محلة الصدرية من السيارات المفخخة إذ طالتها شاحنة بأكثر من طن من المتفجرات في أربعاء شباطي من العام ٢٠٠٧، ليذهب ضحيته أكثر من (١٤٠) شهيدا و٣٠٠ جريح فضلا عن سقوط العديد من الابنية التي تحتاج إلى ذريعة بسيطة من اجل الانهيار لقدم البناء وتآكله، لذا تجد في الصدرية أكثر من بيت منكوب برحيل أب أو ابن أو امرأة أو طفل، لتضاف نكبة أخرى إلى نكبات الصدرية وما أكثرها فلقد تعرضت عام ١٩١٤م إلى الغرق وفي العام الذي تلاه احترقت الصدرية في حريق بغداد الشهير الذي استمر أربعة أيام.

والصدرية معروف عنها أنها لم تشهد أي احتقان طائفي على الرغم من تنوع انتماءات ساكنيها، ففيها الكردي والعربي والمسلم والمسيحي والصابئي لكنهم ينعمون بحياة الانسجام والتعايش الوطني وهويتهم الأولى هي عراقيتهم قبل كل شيء كما يقول أبو احمد.

محل لذبح وسلخ الدجاج

يقول احد القصابين الذي يبيع بالجملة إن العمل بهذه المهنة لم يعد مجديا كما كان في السابق باستثناء ما نبيعه إلى الزائرين لمرقد الشيخ من الهند أو باكستان واندونيسيا وإيران والعديد من دول العالم حيث يأتون إلينا لشراء البقر والأغنام وكذلك الدجاج الحي، مضيفا بأنهم يصرون على ذبحها بأيديهم، وكذلك الدجاج الذي يقومون بسلخ جلده لأنهم ينسبون الكثير من الأمراض له، ويقوم الزائرون الأجانب بطبخ ما يشترون في مطبخ الخيرات التابع للوقف القادري ثم يقومون بتوزيعه على الفقراء. هنا انقطعت عن حديث القصاب وتوجهت إلى ساسة البلد المستقتلين على المناصب والمكاسب تاركين من انتخبوهم يعيشون على صدقات الزائرين الأجانب، والمصيبة أنهم يدعون الدين والتقوى والطهارة، وما زاد ألمي رؤيتي طفلا يقف على باب بائع للدجاج الحي والذي يقوم أيضا بذبحه طالبا منه أرجل ورؤوس الدجاج. حيث يقول البائع إن الكثير من العوائل المتعففة تطلب منا تلك الرؤوس والأرجل مجانا، لأنها تعتمد في معيشتها على مطبخ الخيرات وما نقدمه نحن لها.

مشاهير الفن والرياضة

ويضيف عبد الرزاق أن الصدرية خرجت الكثير من الرياضيين والفنانين، فمنها مثلا لاعب القوة الجوية السابق رشيد حميد وطارق عزيز واللاعب احمد راضي والملاكم خليل إسماعيل وكذلك عباس نعمة وشقيقه حسين والمصارع قدوري نوري وشقيقه احمد، وكان في الصدرية مقهى حسن وهو ملتقى مشاهير أبطال الروزخانه كالمرحوم عباس الديك وصادق الصندوق، وكذلك الفنانون مثل الفنان خليل عبد القادر والفنان مكي البدري. ومن الشخصيات الموجودة في محلة الصدرية كما يذكرها الكاتب حيدر الحيدر، الأستاذ محمود فهمي درويش الذي انشأ أول مختبر كيمياوي في بغداد وهو مختبر ابن سينا، وكذلك من أبناء المنطقة كما يقول الحيدر الدكتور خالد الجادر الحاصل على الدكتوراه من باريس وهو عميد معهد الفنون الجميلة عام ١٩٦٠، ومنطقة الصدرية ذكرها العديد من الكتاب منهم مثلا الكاتب البريطاني (فلكس جونز) في كتابه (أحوال بغداد في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر).

ومن محلات الصدرية المشهورة هي محلة الأتون وهي عبارة عن جادة تأتي مباشرة بعد حمام السيد الذي يتوسط المحلة، وسمي الموكب الذي تقيمه الصدرية أيام عاشوراء بالأتون وهو موكب يقيم الشعائر الحسينية منذ ثلاثينيات القرن الماضي.

طبخ القيمة

وتتميز محلة الصدرية أيام عاشوراء بطبخ الطعام وخاصة (القيمة) التي يقول عنها (ابو احمد) بأنها تضاهي القيمة التي تطبخها مدينة الكاظمية، لكون من يطبخها هم في الاصل من محافظة النجف التي تشتهر بهذه الأكلة العراقية الخالصة، وما يجعل الصدرية تنفرد عن بقية محلات العراق بالنسبة للطبخ، هي أنها طيلة أيام محرم تقوم بالطبخ لأن البيوت جميعها تطبخ وحسب جدول زمني توارثوه من الاعوام السابقة، فيعرفون أن بيت ابو احمد وجاره يطبخون يوم الاثنين، والثلاثاء على البيت الفلاني، وهكذا وهكذا، وعزوا ذلك إلى عدم تبذير الطعام إذا ما طبخ الجميع معا.

ويحتفلون جميعا كذلك بأيام رمضان والمولد النبوي وأيام الزكريا، وكانت في الصدرية عدة مدارس في عشرينات القرن الماضي لكنها اندثرت شأنها شأن الكتاتيب مثل (ملا ملهم) و(ملا عليوي) ومن النساء الملاية زهرة والملاية فاطمة.

لم تكن الليلة جميلة

ويقول الحاج منعم وهو احد سكنة المنطقة "أنجبت الصدرية العديد من الأسماء المهمة في الثقافة والفن والغناء، فمنها القاص خضير عبد الأمير ومن الرسامين جميل حمودي ومطربي المقام من أمثال رشيد القندرجي ومحمد العاشق، قلت مع نفسي لم تكن الليلة جميلة كما كان يغني المطرب محمد العاشق، وذلك لرؤيتي مشاهد البؤس والإهمال التي تعيشها المحلة فسقوف سوقها تكاد تنهار على محالها، وهي مغطاة بصفائح مثقوبة فإذا ما انهمر المطر بالتأكيد سيتلف بضائعها الرائعة والمنوعة".

وأنا انظر الى السماء تذكرت ما قاله صادق الطريحي شعرا:

– هل يهطل المطر الغزير؟
– هل يهطل المطر الغزير؟
يا أيها الكوز الملطخ بالدماء
يا طلقة زرقاء من وجه السماء
يا بسمة فوق الحصير
إني أحسّ رصاصة صماء تقتحم الفراغ
إني أحسّ بها تحطّم ما تبقى من خراب
والى حرقة..عفوا.. حلقة أخرى من حياة شارع الكفاح

الصدرية وأنت تتجول فيها فأنك تلاحظ أنها خلت من السيارات تماما والملاذ الوحيد لمن يمتلك سيارة هو الموقع القديم لدار سينما الفردوس الصيفي الذي أصبح مرآبا للسيارات، فالأزقة ضيقة جدا وأحيانا لا يحتمل الواحد منها مرور أربعة أشخاص معاً

الصدرية معروف عنها أنها لم تشهد أي احتقان طائفي على الرغم من تنوع انتماءات ساكنيها، ففيها الكردي والعربي والمسلم والمسيحي والصابئي لكنهم ينعمون بحياة الانسجام والتعايش الوطني